

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد منبع العلم والنور ومصطفاه، وبعد:
 فإن العلم بحر لا ساحل له، وبرٌّ لا نهاية له، يستفيد منه المستفيدون،
 ويهتدي به المتقون، ويستضيء به الصالحون، وإن كتابنا هذا «مفيد العلوم ومبيد
 الهموم» من أمتع ما يقرأ الطالب والعالم مما حوى هذا البحر، ففيه من العلوم
 الغزير الوفير، واشتمل من الكتب والأبواب المتفننة الكثير، وأراه لم يترك باباً من
 الأبواب التي يحتاجها المسلمون عامةً وطلبة العلم خاصةً من عموم مسائل الدين إلا
 طرقه، وقد نصح فبالغ في نصيحته في غير موضع لخواص الأمة من أولياء
 أمورهم، حيث إنه بدا في عدة مواطن في كتابه أنه يخاطب به زمرة من الوزراء
 والرؤساء فضلاً عن المسلمين عامةً، فلم يأل جهداً في نصيحتهم فنراه يقول مرة:
 «فهذا يا معشر إخواني من المسلمين مصرف الأموال ومظانها من الخراج
 والزكوات، والإقطاعات، والتركات، والفيء والغنيمة، أصحابها يموتون جوعاً
 ويضيعون عراً، وترى الملوك والوزراء يصرفون ذلك إلى المطربين والمسأخرة،
 ويشترون خيلاً وغير ذلك من الأواني والفرش والملبوس، ولكن رضوا بشراء
 الغلام، وشرب المدام، وضمنوا من الدنيا بأهون بُلغَةٍ بلثم غلامٍ أو شرب مدام؛ فويل
 لقاضي الأرض من قاضي السماء».

ويقول لهم في موطن آخر واعظاً لهم بحديث رسول الله ﷺ: «من علق
 سوطاً بين يدي سلطان جائر جعله الله حيةً طولها سبعون ألف ذراع، فتسلط عليه

في نار جهنم خالدًا فيها» - يعني: يناله طول مكث وبقاء في جهنم إن كان من الموحدين المسلمين، وإن كان كافرًا فخلوده فيها أبدا لا خروج له منها.

وفي مواطن أخرى من الكتاب يتكلم عن غرائب الفقه وعن عقيدة المسلمين الصحيحة وعن عجائب المخلوقات وعن خصائص البلدان وخصائص الأحجار والمعادن، ويتكلم عن العقائد والملل المخالفة لملة الإسلام ويفندنها، ويرد على باطلها وكفرها، ويتكلم في أبواب أخرى عن النكاح وعلم الباءة وصفات النساء وخيرهن للرجال،.. إلخ.

فحقيقةً هو كتاب ممتع مفيد جدًا لكل من قرأه بتمعن، كيف لا، وقد استشهد فيه بالكثير من الآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية المطهرة مرشدًا للأمة خاصتها وعامتها؟ فجزاه الله عن أمة النبي ﷺ خيرًا، فإني أرى هذا الكتاب مثل أمهات الكتب في فوائدها للمسلمين، فهو يشبه «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي في حاجة الناس إليه، وإن كان «الإحياء» يزيد عليه بالفقه والعبادات والمعاملات ونقائض كثيرة عن النفس، وقد رأيتُه أخذ عن «الإحياء» في مواطن من الكتاب خاصةً عندما تكلم عن أصناف المغرورين في كل طبقة وعلاجهم، وإن لم يصرح بالأخذ في هذا الموطن.

وقد عملت على الآتي عند التعليق على الكتاب:

١- اعتمدت على طبعتين للكتاب: طبعة قديمة طبعت بالمطبعة والمكتبة السعيدية بجوار الأزهر الشريف بمصر سنة (١٣٤٥هـ) - خمس وأربعين وثلاثمائة وألف؛ أي منذ خمس وثمانين سنة، وقد اشتملت على أخطاء كثيرة بالرغم من ذلك.

٢- الطبعة الثانية طبعة حديثة مأخوذة عن السابقة، وقد اشتملت على نفس أخطائها وأضيف إليها أخطاء كثيرة جدًا أخرى، بل سقط منها أربعة أبواب في آخر الكتاب هي: باب في أحوال الناس، وباب في خبر عاد وثمود، وباب في الوقائع والعظام، وباب في فتنة الخوارج؛ فقممت بإثباتها من الطبعة القديمة.

- ٣- أثبت الآيات القرآنية مخرجةً من المصحف الشريف.
 - ٤- علقت على الألفاظ التي تصعب على بعض القراء من مظاهرها مثل:
القاموس المحيط للفيروزآبادي، ومختار الصحاح للرازي، والمصباح المنير للفيومي المقرئ.
 - ٥- شرحت مواطن كثيرة فقهية أو عقائدية أو صوفية أو غيرها كالموازين والمكاييل وهي كثيرة بما يزيل عنها الإشكال ويوضحها للقارئ العادي وطالب العلم.
 - ٦- تكلمت عن أوزان أبيات الشعر بها وبينت من أي بحور الشعر العربية.
 - ٧- ترجمت لمؤلف الكتاب.
 - ٨- ترجمت لبعض أصحاب الكتب التي ذكر أنه أخذ عنها، وهي ليست بالكثيرة بل معدودة في كلامه.
 - ٩- كتبت هذه المقدمة، وحققت نسبة الكتاب للمؤلف، وهو ما يلي هذه المقدمة بالذكر.
- والحمد لله وحده لا شريك له، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

محمد عبد الرحمن الشاغل

تحقيق نسبة الكتاب لمؤلفه

قد تضاربت الآراء بشأن مؤلف هذا الكتاب فمن قائل (كشف الظنون لحاجي خليفة، ج ٢، ص ١٢٧): إنه مجلد لبعض المغاربة، ويشتمل على قواعد الشرع وقانون الممالك، ونصرة المذهب، وتذكرة الآخرة، وتذكر العدو إلى غير ذلك. وتلى ذلك نفس عنوان الكتاب، غير أنه يشتمل على الألفاظ اللغوية من الطب. وقال: إن مؤلفه هو الأمير زكريا يحيى بن أبي محمد بن شيخ الموحد بن أبي حفص.

أما سر كس فقد ذكر في معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج ١، ص ٨٣٨ - ٨٣٩: أنه من تأليف الخوارزمي أبو بكر (المتوفى سنة ٣٨٣هـ).

أما المستشرقون من أمثال بروكلمان، فقد أورد في موسوعته «تاريخ الأدب العربي»، الجزء الأول، ص ٦٥٨: أن مؤلف كتاب «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، هو جمال الدين القزويني المتوفى سنة ٥٥١هـ (١١٥٦هـ) وذلك بناء على المخطوطات التي اطلع عليها وهي:

١- مخطوطة غوتا رقم ١٧٣.

٢- مخطوطة باريس رقم ٢٣٣٤، ومخطوطة المتحف البريطاني، ٧١٢، ومخطوطات القاهرة التي جاء فيها أن المؤلف هو أبو بكر الخوارزمي، ثم عاد وذكر في SI من كتابه: أن المؤلف هو جمال الدين القزويني كما ورد في مخطوطة برلين ٨١٥٩، وكمبردج ١٠٨١. والله أعلم!

ويبدو لي أن مؤلف الكتاب ليس الإمام الخوارزمي أبا بكر محمد بن أحمد ابن يوسف الكاتب التركي المتوفى في حدود سنة (٥٣٨٠هـ) - ثمانين وثلاثمائة - كما في هدية العارفين - ج ٢، ص ٥١ - وهو صاحب «مفاتيح العلوم» بل هو القاضي عماد الدين القزويني.

والسبب الأول في ذلك: أن القاضي القزويني أبو يحيى نقل عنه في ثلاثة مواضع، فقال في موضع: قال أبو بكر الخوارزمي: (رأيت هذه المواضع كلها فأطيبها وأحسنها غوطة دمشق - بارك الله فيها)، وقال في آخر: قال أبو بكر الخوارزمي: (ما وقع في يدي فهو على يد عدل)، وقال في ثالث: قال الخوارزمي: (من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة.. إلخ، ولم يخرج في الشعر؛ فلا أشاب الله قرنه).

فلما وجد بعضهم هذه النقول الثلاثة في الكتاب توهموا منها نسبة الكتاب إلى الشيخ الخوارزمي، ولو كان كذلك لوجدنا هذا مطردًا في كتابه كعادة المؤلفين عندما يتحدثون عن أنفسهم في كتبهم فيقولون: قال فلان - يعنون بذلك أنفسهم.

والسبب الثاني: أن هناك تشابهاً بين الاسمين فالخوارزمي له كتاب «مفاتيح العلوم»، وهذا الكتاب اسمه «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، فاشتبه على بعضهم ذلك فكتبه على ظاهر المخطوط، فتناقلته الأيدي حتى طبعته المكتبة السعيدة منسوباً للإمام الخوارزمي، وليس له. ولو كان الأمر كذلك لنسبنا الكتاب للإمام ابن سيرين مثلاً عندما يقول القزويني في كتابه: قال ابن سيرين، أو إلى غيره من الأئمة المنقول عنهم.

والذي أوقعهم في هذا أن الإمام القزويني لم يستهل مقدمة كتابه بقوله مثلاً: قال الشيخ القاضي عماد الدين أبو يحيى القزويني.. كعادة كثير من المؤلفين.

وأما عن قوله في موضع من كتابه: (وقرأت من مفيد العلوم أن الثلج يتراكم بتركستان أربعين ذراعاً.. إلخ)؛ فمعناه: قرأت من العلوم المفيدة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وإلا لو كان المقصود كتاب «مفيد العلوم» لقال: قرأت (في) مفيد العلوم بدل (من)، فلربما أحدث هذا إشكالاً وتغريباً عند بعضهم في نسبة الكتاب أيضاً، فتنبه.

السبب الثالث: ورد في كلامه قوله: إنه تكلم بعض الملحدين والقائلين - كفرةً وزوراً - أن الأنبياء بخاصية العقل وصلوا للمعجزة، ومقصودهم أن يخرجوا الناس عن دين الله.. إلخ، فقال القاضي القزويني تعليقاً على هذا: وإن سلمنا جدلاً فلم يكن رجل منذ خمسمائة وأربعين سنة يعرف خاصية سلك المعجزة فيدعيها مع كثرة عددكم؟!.. إلخ.

فدل هذا الكلام أن هذا الزمن (٥٤٠هـ) زمان متقدم على زمان المؤلف وليس الإمام الخوارزمي ممن عاش إلى هذا الوقت بل توفي في حدود (٣٨٠هـ)، فثبت بذلك أن الكتاب لا ينسب قطعاً إلى الإمام الخوارزمي.

والسبب الرابع: أنه قال في موضع: (وصعد هذا الزنديق يعني: ابن سينا الباطني أبا علي بن الحسن وهو الضياء - صعد قلعة الموت في سنة (٤٧٠هـ) فدل أيضاً أن الكتاب ليس للخوارزمي لأن هذا التاريخ بعده بحوالي (٩٠) عاماً.

والسبب الخامس: قوله في موضع من الكتاب: (منذ خمسمائة سنة يفهمون عنها - أي: عن لغة العرب -.. إلخ).

فدل هذا على أن الإمام الخوارزمي ليس هو المؤلف قطعاً للكتاب، ومن قال بهذا فهو واهم لا يدري ما يقرأ بين يديه. وقد كانت المكتبة السعيدية طبعت الكتاب وجعلت مؤلف الكتاب هو الإمام الخوارزمي، وهو خطأ كما بينته، فنتبه.

السبب السادس: أنه نقل عن عدة كتب متأخرة عن زمن الخوارزمي:

١- الجواهر، وهو (جواهر الأخبار) لأبي محمد الحسن بن أبي عقامة اليميني المتوفى سنة ٤٨٠هـ : ٤٨٣هـ.

٢- نقل عن «التقريب»، وهو للإمام الشيخ قاسم بن محمد بن القفال الشاشي الشافعي، المتوفى سنة (٤٧٨هـ).

٣- تاريخ المقدسي، وهو كتاب «تاريخ المقدس» للشيخ أبي القاسم مكي بن عبد السلام الأنصاري الشافعي، المتوفى سنة (٤٩٢هـ).

فهذا جزم أخير بأن المؤلف ليس هو الإمام الخوارزمي، وأن الأقرب أن يكون هو القاضي الإمام عماد الدين أبو يحيى القزويني كما هو مثبت على ظاهر بعض المخطوطات والمطبوعات تبعاً لها.

أما عن نقله عن الإمام أبي عبيدة في كتابه «المثالب» المتوفى سنة (٥٢١٠هـ)، وعن الصولي، المتوفى سنة (٥٣٢٤هـ)؛ وابن سيرين من التابعين، فكل هؤلاء وإن كانوا متقدمين على زمن الإمام الخوارزمي، إلا أنه يدفع احتمال نسبة الكتاب له ما تقدم ذكره من التواريخ المتأخرة عنه.

هؤلاء جملة من نقل عنهم في هذا الكتاب، وتبقى لنا اثنان أحدهما: الإمام محيي الدين يحيى السلماسي، فهو يقول عنه: (سأل بعض تلامذتنا الإمام محيي الدين يحيى السلماسي)؛ فهذا يدل على أنه معاصر لمن ألف «مفيد العلوم».

والثاني: قول مؤلف «مفيد العلوم»: (حدثني السيد الإمام جلال الدين أبو القاسم علي بن يعلى بإسناده.. إلخ)؛ فهذا يدل على أنه شيخ أو قرين للمؤلف.

فمعرفة هذين التاريخين يفيدنا في الجزم بمن هو المؤلف هل هو القاضي عماد الدين زكريا القزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ أو جمال الدين القزويني المتوفى سنة ٥٥١هـ كما ذكره بروكلمان في «تاريخ الأديب العربي»، وإن كنت أرى أنه هو القاضي عماد الدين المتوفى سنة (٦٨٢هـ) لما يقع من تشابه بين كتابه هذا وكتبه الثلاثة المذكورة لاحقاً في ترجمته، وهي «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، و«عجائب البلدان»، و«آثار البلاد وأخبار العباد»؛ وذلك من حيث الموضوع وتعدد الفنون فيها، والتطرق للعجائب في أكثر من باب، والله تعالى أعلم.

ولو أنني اطلعت على مخطوطات الكتاب التي يذكرها بروكلمان وغيره، أو مخطوطة برلين وكمبردج وغيرها؛ لكان تحقيقي لهذه النسبة أكثر إيضاحاً وبياناً واستدلالاً من هذا، ولكنني طلب مني التعليق على المطبوع، وليس تحقيق المخطوط ابتداءً، ولم تتوفر لي مخطوطاته.

ومما أوقع المستشرقين في الاشتباه أو أوقع غيرهم فيه هو إبدالهم عنوان «مفاتيح العلوم» للخوارزمي بـ «مفيد العلوم» للقزويني، وهذا يسهل وقوعهم فيه، وقد وقع غيرهم فيه من أهل الصنعة والشأن، أفلا يقع المستشرقون فيه؟!

والحمد لله تعالى على ما فتح به، وهو مني جهد المقل، وما كان فيه من صواب فمن فضل الله وسعته، وإن يكن الخطأ فهو مني، وأسأله الهدى والتقى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين.

محمد عبد الرحمن الشاغل

ترجمة الإمام القزويني

نسبه:

هو زكريا بن محمد بن محمود القاضي عماد الدين أبو يحيى الأندلسي الأنصاري القزويني قاضي واسط.

مولده ووفاته:

ولد سنة (٥٦٠٥هـ) خمسة وستمئة، وتوفي سنة (٥٦٨٢هـ) اثننتين وثمانين وستمئة.

من تصانيفه:

- ١- آثار البلاد وأخبار العباد. في التاريخ. في مجلد.
- ٢- عجائب البلدان.
- ٣- عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات. مطبوع^(١).

كتاب

مفيد العلوم ومبید الهموم

للإمام القاضي عماد الدين القزويني

رضي الله تعالى عنه

ونفعنا به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي ما للعالم سواه خالق وصانع، ولا له عما يريد مانع ودافع، وكل عزيز على بابه بالذل خاشع، وكل سلطان لسلطنته خاضع متواضع لا وضيع إلا وهو له واضع، ولا رفيع إلا وهو له رافع، ولا متبوع إلا وهو في حكمه تابع، وما سواه للبلاء عن الخلق دافع، ولا شريك له ولا منازع، الخير والشر بتقديره لا بتدبير الطوالع، والنفع والضرر بقضائه لا باقتضاء الطبائع^(١)، الجماد والحيوان له مطيع وسامع، والسلطان والرعية له ساجد وراكع، وهو للكل بالموت قانع، ثم ليوم الحشر حاشر وجامع، وحقاً ثم حقاً إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سراجة لامع، وسيفه قاطع، ودينه جامع، وهو لأمته شافع، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أبي بكر الطائع، وعمر القانع، وعثمان الساجد والراكع، وعلي الذي بيده باب خبير قانع، وسلم تسليماً كثيراً.

هذا، وقد شهد سلطان العقل وقضى به حاكم الشرع أن العالم من العرش إلى الثرى مرآة مجلوة للناظرين، وآية كاشفة للمتبصرين، وكل من ينظر فيها

(١) أي: وليس كما يقول الفلاسفة أن الأشياء لا يجوز خروجها عن طبائعها وأمزجتها، فالنار محرقة لا بطبيعتها بل بخلق الله تعالى الإحراق فيها عند مماسة اليد لها، ولو شاء الله تعالى تخلف الإحراق عنها كما في: «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»، فالقول بالطبع مروق عن الملة كما قرره الأئمة المحققون. قال العلامة الدردير:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

يرى أن الصانع رب العالمين، ﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَنْفَا تَبِيرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

فجواهر العالم^(١) تناجي وأجسامه تنادي بلسان الحال، فهو أفصح من لسان المقال ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] فجواهر يقول: هل من خالق غير الله؟ وجوهر ينادي: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

ولقد أصاب لَعَمْرُ اللَّهِ صاحبنا المطلبي في المعنى ﴿لَعَمْرُ اللَّهِ﴾ حيث قرأ: صبغة^(٢)، وجوهر ينطق، ويقول: ﴿رَبِّ لَكَ الشُّرُكُ وَالْقُرْبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وذوات العالم تنادي أنفسها، وذواتها شهدت شهادة لا شك فيها بأن الله تعالى ليس له شريك، أشهد لو نظر واستبصر أهل التوحيد لوصلوا إلى حقيقة التوحيد.

فيا عجباً كيف يعصي الإله — ه أم كيف يجده الجاحد
وفي كل شيء له آية — تدل على أنه واحد^(٣)

فالدلائل الصامته والناطقة شاهدة بوحدانيته، ولكن الإرادة الأزلية فرقت بين المؤمنين والكافرين، أنصت على قوم بالمعرفة والإيمان، وخصصت قومًا بالخذلان

(١) الجواهر: جمع (جوهر)؛ وهو ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع، وهو منحصر في خمسة: هيولى وصورة وجسم ونفس وعقل. التعريفات - للعلامة الجرجاني. ط مصطفى الحلبي - ص ٧٠ باختصار.

(٢) صبغة الله: فطرة الله أو التي أمر الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وهي الختان. «القاموس المحيط».

وفي تفسير النسفي: صبغة الله: دين الله، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتم، فلا صبغة أحسن من صبغته - يريد الدين أو التطهير.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل - للإمام أبي البركات النسفي - ج ١، ص ٩٢ مع تصرف واختصار.

قلت: وقد استعمل المؤلف لفظ الصبغة استعمالاً عاماً يتفق مع عموم لفظ الصبغة، وهو رائق فائق.

(٣) البيتان من بحر المتقارب.

والحرمان، وأخبر القرآن للقديم فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

أتاك المرجفون برجم غيب على دهش وجنتك باليقين^(١)

ولقد وفق الله أهل الحق من بين البرية، وخصهم بهذه الهدية، وأكرمهم وعظمهم بالإسلام والسنة، والتوفيق والعصمة، فعرفوه وعظموه، وقالوا: جهلوك فجدوك ولو عرفوك لعبدوك، فنادوا هلموا فلله الحجة البالغة حجة العقل، فانظروا في وجود الحوادث أولاً^(٢)، ثم انظروا في حدوثها ثانياً، واستدلوا بحدوثها على قدم محدثها ثالثاً، واذكروا من الدلائل قليلاً كفى بذلك جملة وتفصيلاً، استدلوا بالتغيرات على المغيّر، وبالحركة والسكون على حدوث العالم، واعلموا أن لنا رباً قوام الأشباح بنعمته وبقاء الأرواح والأجسام برحمته، ونحن حيرى في كنه عظمته، فأصبحوا وغايتهم العجز والإذعان، وجهزهم الأمان الأمان، يا مزيل الدول والزمان، يا من كل يوم هو في شان، يا مقلب القلوب والأبصار، احفظ علينا نعمة الإيمان واعصمنا من البدع والكفر والطغيان، فاعتقادنا ومكنون فؤادنا هذه الكلمة: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ما شئت لا ما شاعت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار^(٣)
غيره:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا^(٤)

يا هذا، عميت عين لا تفوز بالنظر إلى صنع الله، وخأس عقل لم يحتط من حكمة الله، وخذل عبد لم ينظر في صنع الله، وخاب امرؤ لم يتنكر بأيام الله، وخاب

(١) البيت من بحر الوافر، ووزنه: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)، مرتين.

(٢) أي: وجودها أولاً في علم الله تعالى الأزلي القديم.

(٣) البيت من بحر الكامل، ووزنه: (متفاعن متفاعن متفاعن)، مرتين.

(٤) البيت من بحر الوافر، ووزنه: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)، مرتين.

الكافرون وخسر المبطلون وضل المتفلسفون وهلك الملحدون، فبأي حديث بعده يؤمنون؟! فالأرواح نوازع والنفوس جوازع، والأسرار ضوائع، فبم التعل وحتام^(١) التمهل؟! وما هذه الدعوى وعند الصباح يحمد القوم السرى؟ فطوبى لعبد جعل التوحيد سمير فكره، ونجى قلبه، ومطية سيره إلى ربه، فإن قدر الآدمي بالدين القويم والهدى المستقيم، والنجاة في التوحيد لمن يعتقد، وقيمة كل امرئ ما يحسنه. ومن ألبس سربال الإسلام فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الأبواب. فيا لها نعمة على جسد، فهو ملك أعطى النعمة الكبرى والفضيلة العظمى، فله عز في عز، ودولة في دولة، فالأمر أمره ولله دره فما أعظم قدره تذكر.

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم ولل مفلس المسكين ما يتجرع^(٢)

ومن سلب ثوب إيمانه وأتهم في نبيّ زمته فحق له البكاء، فقد بطل وجوده

وربّ السماء، فيعيش بين الورى كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

فالنعمة نعمة الدين والدولة للمسلمين، والعاقبة للمتقين، قال مالك بن برهة

ابن نهشل المجاشعي سيد وفد بني تميم: يا رسول الله، أأست أشرف قومي؟ فقال: «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك دين فلك شرف، وإن كان لك مال فلك حسب، وإلا فأنت والحمارة سواء» فالمعاصي في جنب التوحيد تتلاشى، وكل الصيد في جوف الفرا.

هذا، وقد علم كل عاقل منصف وفاضل منصف أن الدنيا دار قلعة، والحال حل

خدعة، والعصر كما ترى مار بسرعة. فالدنيا حلم والآخرة يقظة^(٣)، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، فما هي لعمرك الله إلا أنفاس معدودة وأجال محدودة

(١) أي: حتى متى يكون التمهل، فيقال في (إلى ما): إلام، وفي (حتى ما): حتماً. هكذا الحال إذا اتصلت هذه الحروف بما.

(٢) البيت من بحر الطويل، ووزنه: (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) مرتين.

(٣) وفي الخبر: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

وآمال ممدودة، فكل نفس خطوة، وكل خطوة ميل، وكل شهر منزلة فرسخ، وكل سنة منزلة، فإذا بلغ الأجل فقد بلغ للمنزل، فإذا خطيبٌ ينادي:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر^(١)

فالعقل يأخذ من نفسه لنفسه، ويقيس يومه بألمسه، فإن مدة العمر قليلة، وصحة الجسم مستحيلة، والدهر خائن والمرء لا محالة حائن^(٢)، وكل ما هو آت فكائن، وكل يوم يسوق إلى غده، وكل امرئ مأخوذ بجناية لسانه ويده. مسكين ابن آدم انقطعت أسرته يوم قطعت سرته، فواده طالب وهو مطلوب، وجميع ما له مسلوب. شبابه إلى هرم، وسلطانه إلى أتضاع، وماله إلى ذهب، وصحته إلى سقم، وحياته إلى ممات، متصل ذلك بعضه إلى بعض اتصل الليل والنهار، والشتاء والصيف. أحسن بامرئ غرته الدنيا، هل يبلغن مغرور منها إلا خرقه وكسرة؟ إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن إخوته، فجمع لزوج امرأته، أو زوج ابنته، أو امرأة ابنه، أو لعدو خرق.

إن في تلك لآيات فهل من مدكر؟ وهل من عقل معتبر ينظر إلى حوادث الزمان وعواقب السلطان؟ فالعقل يدعو إلى الاعتبار، والحكمة تحت على الاستبصار، الساعات تهدم الأعمار، ومنادي الشرع ينادي الاعتبار الاعتبار. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

نسير إلى الآجال في كل ساعة
ولم أر مثل الموت حقا كأنه
وما أقيح التفریط في زمن الصبا
ترحل من الدنيا بزاد من التقى
وأيامنا تطوى ومن مراحل
إذا ما تخطته الأمانى باطل
فكيف به والشيب في الرأس شامل
فعمرك أيام تعد قلائل^(٣)

(١) البيت من بحر الطويل.

(٢) الحائن: الأحمق. "القاموس المحيط".

(٣) الأبيات من بحر الطويل.

ونقل أن بعض الملوك نظر إلى ملكه فأعجبه ذلك، فقال: إنه الملك لولا أنه هالك، وإنه لسرور لولا أنه غرور، وأنه ليوم لو كان يوثق بغده. فأبلغ العظماة النظر إلى محل الأموات، فعواقب الأمور فوات، وكلنا يا صدر الرؤساء أسراء العبر والممات، والمنزل الذي يستوي فيه العبيد والسادات. انظروا يمنة ثم اعطفوا يسرة، هل ترون أحدا من الرجال والنساء أخذ قبالة البقاء بخطوط مسابح السماء.

عجبا عجبت لغفلة الإنسان	قطع الحياة بغرة وتوان
فكرت في الدنيا فكانت منزلا	عندي كبعض منازل الركبان
مجرى جميع الخلق فيها واحد	وكثيرها وقليلها سريان
أبقي الكثير إلى الكثير مضاعفا	ولو اقتصرت على القليل كفاني
لله در الوارثين كأنني	بأخصصهم متبرم بمكان

هذا، وقد سافقتي تقدير الله إلى جمع كتاب، وتهذيب علم، وترتيب قواعد وترصيع عبارات، وإيراد إشارات، هو ذخيرة السلطان ویتيمة الزمان ونزهة الإخوان، من قال جامع سفيان^(١) فقد صدق، ومن قال نادرة الزمان فما أغرب، فلا غرو، وللشمس أن تشرق، وللبرد أن يتألق، يغازل فيه الشاميون العراقيين، وينافس به العراقيين الخراسانيون، وكل به متنافسون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

عمري من كان له هذا الكتاب لا يضيق صدره أبدا، ويعرف به قواعد الشرع، وقانون الممالك، ونصرة المذهب، ورد الخصم، وتذكر الآخرة، وقاعدة العدل، وعاقبة الأمور، ونذير العدو، إلى غير ذلك. وأنفقت فيه شطرا من صالح عمري، وسميته «مفيد العلوم ومبيد الهموم». ورتبته على اثنين وثلاثين كتابا وهي:

(١) أي: كجامع في الحديث منسوب لأمير المؤمنين في الحديث وهو سفيان الثوري؛

تنبيهها على علو قدر كتابه في العلم.